مهمّات مشبوهة في الديار المقدّسة (٦)

حسن السعيد

بورتون؛ ضابط مخابرات متنكِّر يطالب باحتلال مكّة!

في الحلقات السابقة من هذا الموضوع، تطرّق الحديث إلى ظاهرة قيام عدد من الغربيّين بالمجيء إلى المنطقة الإسلامية، خاصّة الحجاز بغية استكشافها والاطّلاع عليها عن كثب. كانت البدايات المتردّدة الخجول مطلع القرن السادس عشر؛ لتغدو لاحقاً ظاهرة مثيرة للانتباه، لاسيّما في أعقاب حملة نابليون على مصر (١٧٩٨م)، عبر الحضور المكثّف لشتّى الدول المتنافسة على إيجاد مواطئ قدم..

وفي غمرة تصاعد التنافس الاستعماري.. أمست جزيرة العرب بشكل عام، والحجاز خاصّة، مسرحاً لمغامرات عديدة، قام بها دبلوماسيّون وضبّاط وموظّفون ومغامرون وجواسيس، مع حرص شديد على إخفاء هويّاتهم الحقيقيّة، والتظاهر بأنّهم مسلمون يؤدّون فريضة الحجّ، منتحلين أسماء إسلامية إمعاناً في التمويه، بل ذهب بعضهم إلى الزعم بأنّه من سلالة الأشراف!

هنا نواصل رصد هذه الظاهرة، من خلال التعرّف على أبرز شخوصها،

محاولين تسليط الضوء الكاشف على الجزء الطافي من مهمّاتهم المشبوهة.

* * *

● **(الحاج) بورتون!**

صبيحة يوم الخامس والعشرين من تموز (يوليو) ١٨٥٣م، وصل المدينة المنوّرة بريطاني متنكّر باسم «الحاج عبدالله»؛ ليغدو أحد أبرز الرحّالة الأوروبيين الذين قاموا بمهمّتهم المناطة بهم خير قيام.

ولم يكن هذا (الحاج) سوى «السير ريتشارد فرنسيس بورتون» الموظّف في شركة الهند الشرقية المعروفة، وقد حظي «بورتون» من الشهرة الواسعة، بسبب مهمّته تلك، حتّى إنّ العديد من الأوساط قد أولته اهتماماً خاصّاً، إذ لم يُكتب عن أحد بقدر ما كُتب عن رحلة «بورتون» إلى جزيرة العرب[١].

هذا الاهتمام الخاصّ لم يولد من فراغ، كما لم يكن محض تقليد بريطاني إزاء رجالاتها المغامرين الكبار، بقدر ما يتعلّق الأمر بالديناميكية التي اتّسم بها بورتون. فليس هناك بين جميع الرحّالة الذين ذهبوا إلى الوطن العربي من هو أكثر نشاطاً أو أغزر قلماً من الرحالة الفيكتوري، في أواسط القرن التاسع عشر وريتشارد بورتون. ما من رحّالة في جزيرة العرب، باستثناء تي. إس. لورنس، كتبت سيرة حياته مرّات أكثر منه، بل إنّ أوّل سيرة نُشرت عنه قبل عشر سنوات من وفاته. لقد رحل إلى افريقيا والهند وسوريا وشمال أفريقيا والبرازيل وجزيرة العرب التي ظلّت بين هذه جميعاً، كما قال هو نفسه: «البلاد التي تولّعت بها»[٢].

كتب بورتون تقريباً في كلّ المواضيع من تربية الصقور، إلى المناجم، إلى الآثار، إلى الطبّ، إلى الهندسة، إلى تسلّق الجبال إلى آخره. وكتب عن رحلاته في كلّ مكان من الأرض تقريباً، ووضع عن أفريقيا وحدها ١٣ كتاباً تقع في ٤٦٠٠ صفحة، غير أنّ الجزيرة العربية ورحلته إليها ظلّت، كما قال أفضل ما فعله في حياته[٣].

وإذا كانت مقولة «المرء ابن بيئته» تحظىٰ بقدر كبير من المصداقية، فإنّ بورتون سيكون بالتأكيد ابن عصره الفيكتوري [نسبة إلى عهد حكم ملكة

بـــريطانيا فـــيكتوريا المـــتدّ مـــن ١٨٣٨ـ١٩٠١م] والذي اتّسم بتصعيد وتائر التطلّع الاستعماري، في الغرب عموماً، وفي بريطانيا بشكل خاصّ.

من هنا؛ كان مستشرق القرن التاسع عشر إمّا باحثاً (مختصّاً بالصين، أو بـــالإسلام، أو بـــالدراســـات الهندو ـ أوروبية)، أو متحمّساً موهوباً (مثل هوغو في «الشرقيون»، وغوته في «الديـــوان الغربي الشرقي»)، أو كلا هـــذين (مـــثل ريـــتشارد بورتون، ادواردلين، فردرك شليغل)[٤]، وقد كان بورتون ـ كرحّالة ـ مغامراً حقيقيّاً، كما كان ـ كباحث ـ قادراً على الوقوف ندّاً لأيّ مســـتشرق جامعي في أوروبا، وكان ـ كشخصيته ـ واعياً وعياً تامّا لضرورة التصادم بينه وبين المعلّمين الرسميّين، الذين أداروا أوروبا والمعرفة الأوروبية بهذه اللاهويّة الدقيقة وتلك الصرامة العلمية. ويشهد كلّ شيء كتبه بـــورتون، لهذا الاستعداد للصدام، بازدراء لمنافسيه نادراً ما بلغ الدرجة التي بلغها في تمهيده لترجمته لألف ليلة وليلة. ويبدو أنّه قد وجد نوعاً خاصّاً من المتعة الطفولية في إظهار أنّه كان ذا معرفة تفوق معرفة أيّ باحث محترف، وأنّه قد اكتسب تفاصيل تفوق كلّ ما اكتسبوه، وأنّه كان قادراً على التعامل مع المادّة بفطنة وكياسة وطراوة هم عنها عاجزون.

وقد اعتبر بورتون بحقّ الأوّل في سلسلة من الرحّالة الفيكتوريّين إلى الشرق الذين كانوا فرديين بعنف[٥].. وسيكون لتصاعد روح الثقة بالنفس والشعور بالقوّة في أوروبا القرن التاسع عشر مع تقدّم عقود القرن، أثره في نوع الرحالة ومهمّاتهم ومقدار تصميمهم. وسنجد في هذا العصر رجلاً مثل بـــورتون يـــتجوّل في طول الجزيرة وعرضها، غير متورّع عن ارتكاب جريمة القتل بعد شكّ أحد الأهالي بأنّ (الحـــاج) عبدالله ليس سوىٰ رجل نصراني لا يحسن المعرفة بالإسلام أو اللغة العربية. ولكنّ (الحاج) عبدالله سيعود ليغذّي المخيّلة العربية من خلال أوراقه التي نشرتها زوجته بعد وفاته ومـــن قـــصص ألف ليلة وليلة التي ترجمها. كما أنّه سيمهِّد السبيل إلى

مكتشف آخر هو بلغريف وتاليه داوتي. وسيضع هذان الرجلان تقليداً جديداً في تاريخ الرحلات إلى الجزيرة العربية ذلك هو تخلّيهما عن اتّخاذ صفة المسلم[٦].

● **الشخصية المغامرة**

وككلّ الشخصيّات المثيرة للجدل، فإنّ المؤرّخين ـ والبريطانيّين تحديداً ـ اختلفوا في تقييم بورتون، ولو أنّ الخلاف لم يتناوله كرجل غامض.. لكن البعض رأىٰ فيه، في تلك المرحلة التوسّعية من تاريخ بريطانيا، شيئاً شبيهاً بالجنرال غوردون الذي حاول تطويع السودان بقوّة المدفع..

وفي حين ينظر «روبن بيدويل» بخِفّة إلى بدايات بورتون واختياره اللغة العربية في اوكسفورد، فإنّ مؤرّخين آخرين يرون في هذا الاختيار تكريساً للغة أحبّها منذ البداية.

وفي حين يرىٰ بيدويل في سفر (والده) جوزيف بورتون إلى فرنسا وايطاليا شيئاً من «الغجريّة» في دماء العائلة، فإنّ البعض الآخر يرىٰ تفسيرات أكثر دقّة في سِيَر بورتون الأُخرىٰ. والواقع أنّ سفر جوزيف بورتون في العام ١٨٢١، أي بعد قليل من رؤيته للنور، هو الذي سيغيّر الكثير من مجرىٰ حياته.

كان هناك محرِّك واحد لريتشارد بورتون هو حبّ الشهرة، إنّها الرغبة التي لن تشبع أبداً.. كما كان بورتون مجموعة من المتناقضات[٧] فقد كان يواجه إهمال وعدم احترام بعض الناس له بشجاعة ومرارة، حتّى إنّه كان يطيب له أن يظلّ مجهولاً، ومع ذلك فقد كان على يقين أنّ العالم لا يمكن أن يغفل اسمه في النهاية.

لقد كان بورتون محبّاً للظهور بشكل ربّما اعتبره أبناء طبقته من الانگليز ممجوجاً ومبتذلاً، وكان طيلة حياته متضايقاً، أو ربّما أتلفه ضيق الأُفق الذي كان رجال طبقته على النقيض يتفاخرون به. ويجب أن نضيف أيضاً ـ يقول بيتربرينت ـ: «إنّ القوّة الدافعة والزخم الذي جعل من بورتون ذلك الرجل الاسطوري يعود الفضل فيه إلى حبّ زوجته له حبّاً يقرب من العبادة، بشكل يفوق أي مجهود آخر بذله هو

لنفسه، لخلق تلك الشعبية الواسعة. فقد كان طيلة حياته بريطانياً غيوراً. وكان كلّ ما يطلبه احترام الجمهور له والمكافآت التي يستحقّها من حكّام البلاد والمسؤولين. ولكي يحرز هذه الأُمور عمل على إنجاز الواجبات التي ربّما أظهرته للعيان. ولكن الأمر المؤسف والمأساوي، من وجهة نظر مواطنه برينث، هو أنّ أحداً لم يفهمه، ولم ينل أي إعجاب أو استساغة من الجمهور، وهكذا فلم تتوفّر له الفرصة لنيل مقاصده[٨].

وتظلّ المفارقات تلازم بورتون كالظلّ، فهذا الرجل الذي طرد من أوكسفورد؛ لأنّ زميلاً له سخر من شاربيه، سوف يرىٰ خلال تنقّله في جزيرة العرب أنّ شاربيه الكثّين هما اللّذان حبّباه إلى الناس، حتّى إنّ أحد مشايخ بني حرب سمّاه «أبو الشوارب»! على أنّ ذروة أعماله سوف تظلّ، في العرب طبعاً، ذلك الوصف الذي وضعه لمكّة المكرّمة ولحظة الانبهار أمام الكعبة[٩].

إنّ ما يثير الغرابة في حياة بورتون هو أنّ نجاحه الخالد غير المشكوك فيه، كان مؤسّساً على اعتقاد جازم بأنّه أوّل رجل اوروبي دخل إلى (مكّة) وأنّ هذا الاعتقاد كان مجرّد خيال محض.

ولم يكن بورتون هو الذي عزّز ورعىٰ هذا الاعتقاد فهو عند وصفه لذلك المكان القدسي (أي مكّة) اعتمد كلّياً وبصراحة وإعجاب على عمل ذلك السويسري بيركهارت. فلم يكن بورتون أوّل شخص يقوم بأداء مناسك الحجّ متخفّياً بل لقد رأينا كيف أن دومينگو باديا ليبلش قد وصل في العقد الأوّل من القرن التاسع عشر إلى مكّة راكباً ظهر جمل، ومنتحلاً اسم «علي بك العبّاسي». ولربّما كان أوّل مصدّق لتلك القصة، التي تقول: إنّ بورتون هو أوّل من قد دخل مكّة، هو وزوجته الليدي بورتون، التي كانت من خلال ترمّلها، قد صمّمت على وضع زوجها السير ريتشارد بورتون في المكان الملائم لكفاءاته..[١٠].

إنّ الليدي بورتون هي التي تحاول الإيحاء بذلك، في مقدّمة النسخة التذكارية لكتاب الحجّ، والتي تتألّق

منظر عام للمدينة المنوّرة (رسم بورتون)

ريتشارد بورتون (لوحة من رسم لويس دوزانج)

منها نظرات الإعجاب الرومانسي إلى الحدّ الذي يقف فيه كلامها كستار أو حاجز رقيق بيننا وبين أولئك المغامرين الذين دبّروا أمورهم، ودخلوا مكّة فعلاً منذ أيّام ثاريتا.

وفي هذه المقدّمة لا تدّعي كاتبتها أنّ رحلة زوجها كانت الرحلة الأُولى (فهي لا تستطيع ذلك ما دام أنّ بورتون نفسه يذكر الشيء الكثير عن رحلات الآخرين) ولكنّها تستعمل أسلوباً يشير ضمناً إلى ذلك. وهذا يقودنا إلى اعتبار عمل هذه السيّدة نوعاً من المغامرات لا يجرؤ كثير من الناس على القيام بها، حتّى إنّ القليل من الناس ينجحون في مثل هذه الأعمال، ولكن لا بأس أن نذكر أنّه حتّىٰ لو كانت لهجتها مضلّلة، إلّا أنّها لا تخلو من شيء من الصواب في آرائها[١١].

ولعلّ النجاح المتميِّز الذي حقّقه بورتون في وصف رحلة الحجّ، هو الذي حفّز زوجته إلى المضي بعيداً في مضمار المباهاة. وإذا كان المستر بيركهارت لم يستطع في بعض الأحيان القيام بجميع مناسك الحجّ وتفاصيله على الوجه الأكمل، فقد استطاع السير ريتشارد بورتون أن يفعل ذلك بعده بأربعين سنة من دون أن يُكتشف أمره على الإطلاق. وكان الفضل في ذلك يعود إلى إتقانه التخفّي، بعد أن تعلّم العربية والفارسية والتركية، وأتقن تعلّم الفروض الدينية المعروفة عند المسلمين، وقد استعدّ لذلك قبل أن يقدم على رحلته الخطرة بأشهر عديدة، واتّخذ جميع التدابير اللازمة للقيام بمهمّته خير قيام، ومن جملة ذلك أنّه عمد إلى الاختتان وهو يومئذٍ في الثانية والثلاثين من عمره! وقد جرّب علاوة على ذلك تأثيرات الصبغات المختلفة في جلده ومظهره، وتعلّم التنعّل واستعمال الرمح وما أشبه[١٢].

ولذلك فإنّ المرء ليأخذه العجب حينما يطّلع على مغامرات بورتون، التي جعلت منه أُعجوبة من الأعاجيب، فقد كان يتقن لغات عدّة، بالإضافة إلى كثير من اللهجات المحلّية المعروفة في الشرق الأوسط والأقصىٰ.. وقد جعلت منه أخبار رحلاته ومغامراته رجلاً اسطورياً، وهو فوق هذا كاتب

مبرز، ترك عند وفاته أكثر من ثمانين كتاباً يصف فيها رحلاته، وما لقي من أخطار.

ومن رحلاته التي خلّدته رحلته إلى مكّة والمدينة، وكشفه عن أسرار قلب جزيرة العرب؛ فقد فضي عنه ثيابه الأوروبية، واستبدلها بملابس مسلم أفغاني في طريقه لأداء فريضة الحجّ، وتسمّىٰ باسم الحاج عبدالله. وقد وصف لنا «بورتون» بدقّة رحلته هذه في كتاب ممتع من جزأين ضخمين هو «الحجّ إلى المدينة ومكّة» [١٨٥٥ ـ ١٨٥٦م].. وقد عدّه الباحثون من أشهر روّاد قلب جزيرة العرب[١٣].

فمن هو هذا البريطاني المتأفغن؟ وما هي حكايته؟ وماذا عن طبيعة مهمّته الخاصّة؟

● سيرة حياة

يقول الزركلي: «ريتشارد فرنسيس بورتون Richard Francis Burton مستشرق انكليزي رحّالة، ولد في «هرتفورد شاير» (عام ١٨٢١)، وكان والده «جوزيف نيترفيل بورتون» ضابطاً في الجيش البريطاني، وجدّه «ادورد بورتون» قسيساً في آيرلنده»[١٤].

قيل: إنّ عائلته تنحدر من أصل غجري، أو هكذا قال المؤرِّخون والباحثون، مع أنّ أُمّه تدّعي أنّها تنحدر بصورة غير شرعيّة من سلالة لويس السادس عشر. ومع أنّ والده كان ضابطاً في الجيش، لكنّ الدلائل على «غجريّة» بورتون كثيرة[١٥] ممّا دفع بعض الباحثين إلى التساؤل عن الغموض الذي يكتنف أصل بورتون، بل أنّ سحنته كانت مدعاة لتعزيز التكهّنات المثارة حوله، وقد ساهمت زوجته الليدي بورتون في تعميق ذلك، إذ تميل ـ وهي التي تتّصف بالرومانسية دوماً ـ إلى التلميح إلى أنّه كانت تجري في عروق زوجها دماء أُخرى غير الدماء الأوروبية كدماء العرب والقرباط مثلاً، والتي أورثته شهوة التجوال[١٦].

ثمّة إثارة أُخرى في هذا الاتجاه؛ إذ ما إنْ رأى بورتون النور في العام ١٨٢١م، حتّىٰ رمىٰ والده الثياب العسكرية خلفه، وراح يتيه في فرنسا وايطاليا،

وهكذا لم يتلق سوى القليل من التعليم الرسمي. وكان الكولونيل بورتون ينوي إدخال ابنه في سلك الكهنوت؛ ولذا أرسله إلى أوكسفورد لتعلّم مبادئ اللاهوت[١٧]، بيد أنّ الشاب جُبل على التمرّد فلم يتقيّد بقواعد التقاليد البريطانية، فضلاً عن أنّه تصرّف بطريقة منافية لقواعد الرصانة والوقار، فقد سبق وأن تعلّم في منزل والده المبارزة بالسيف، وصار يتحدّى الجميع إلى منازلته، وخلال الدراسة الكهنوتية دعا أحد رفاقه إلى المبارزة؛ لأنّ هذا سخر من شاربيه[١٨].

ولهذا وذاك، فقد طُرد من الجامعة طرداً مؤقّتاً، وقد كان في نيّته الرجوع إلى الجامعة، لولا سماعه نشوب الحرب في بلاد الأفغان في آسيا، فبدأت أحلام المغامرات تنتابه، فأقنع والده بشراء براءة لمرتبة عسكرية، وفي عام ١٨٤٢م، وعندما كان في الحادية والعشرين من العمر أبحر إلى الهند، وسرعان ما أصبح ضابطاً في فرقة المشاة، وهي الفرقة الثامنة عشرة[١٩].

في تشرين الأوّل (اكتوبر) ١٨٤٢م وصل بورتون إلى بومباي، في أولىٰ رحلاته حول العالم، وهو ضابط برتبة ملازم ثانٍ في «شركة شرق الهند الامبراطورية». وسرعان ما أظهر مقدرته الفائقة على تعلّم اللغات، حين راح يتقن لغة جديدة كلّ بضعة أشهر، حتّىٰ قيل: إنّه في أواخر عمره كان قد صار يتقن ٢٩ لغة و١٢ لهجة إقليمية[٢٠].

بخصوص تعلّمه اللغة العربية، فقد بدأ دراستها في جامعة أوكسفورد، ولكنّه لم يكمل دراسته هذه لانضمامه إلى الجيش البريطاني في الهند، حيث استأنف دراسة العربيّة عن طريق سكنه في المقاطعات الإسلامية[٢١] وتعلّم الفارسية على أساتذة مسلمين[٢٢].

لم يكتفِ بورتون بإتقان اللغات، بل كان يتنكّر بثياب أهل البلد وينتحل هويّة محلّية، ففي الهند مثلاً، كان يستأجر متجراً في السوق ويجلس كباقي الباعة يفاصل في الأسعار مع الزبائن الذين لم يتمكّنوا من التفرقة بينه وبين باقي التجّار[٢٣]، وفي بلاد كالهند تكثر

اللغات لم يكن الناس يهتمّون بالأخطاء اللغوية في اللفظ أو في نبرة الكلام التي تدلّ على إتقان المصطلحات اللغوية، ولماذا يشكّ ذلك الشعب الفقير بشخصية فقير غريب آخر يحتشد معهم في عالمهم الخاصّ يا ترىٰ؟[٢٤].

غير أنّ ممارسة هوايته المفضّلة هذه لم تستمر، إذ حالت دونها العوائق؛ لأنّ تقمّص شخصيّة الباعة والنزول إلى الأسواق من دون أن يلاحظه أحد جلبا له المتاعب من قبل مرؤوسيه في الجيش، الذين لم ترق لهم هذه التصرّفات، خصوصاً أنّه أرفقها ذات مرّة باختطاف راهبة، أو بملءِ منزله بالسعادين التي كان يجلسها معه إلى طاولة الطعام.

لكن اختلافه وتآلفه مع شريحة من الشعب، كان معظم زملائه الضبّاط يحتقرونها، سبّب له نوعاً من الازدراء والاحتقار أكثر من الإعجاب من قبل زملائه. فقد كان هؤلاء الضبّاط يتّخذون الخليلات أو الزوجات المؤقّتات من بين أفراد الشعب حولهم، ولكنّهم لم يتنازلوا بفعل أكثر من ذلك.

ولكن بورتون من جهة أُخرى اتّخذ شخصية «الميرزا عبدالله» وهو بائع متجوّل من أصل نصفه فارسي ونصفه عربي؛ ولهذا لا عجب أن نرى «السير تشارلز نايير» الذي أخمد الثورة في السند يعمد إلى استخدام بورتون لمساعدته، بعد أن اكتشف أنّه كان بحاجة إلى معرفة المهارات اللغوية التي تختلف عن المهارة في نشر الجنود وإدارة المعارك. وتلت ذلك خطوة أُخرى وهي إرسال ذلك الشاب في مهمّات سريّة تُظهر النزعات الامبراطورية التوسّعية ـ كما يقول الباحث البريطاني بيتربرينث ـ وكانت إحدى المهمّات جمع المعلومات حول الميول الجنسية للسكّان الذكور في المنطقة؛ ولذلك فقد عمد بورتون إلى إصدار تقرير وافٍ شامل عن ذلك الموضوع. وفي أثناء تلك الفترة ترك «نابيير» الهند، ولكن سرعان ما تسرّبت الإشاعات عن تقرير بورتون هذا، ووصلت إلى الرأي العام البريطاني، وهكذا تحطّمت سمعة بورتون على صخرة النطاق البشري.

وبعدها بدأ البريطانيّون الجدد

الآتون من بريطانيا، والذين لم يكن لديهم أي مواهب أو مقدرة يرتقون في وظائفهم فوق رأس بورتون. أمّا بورتون فقد بدأ بالاهتمام بالثقافة، أو الثقافات الهندية. وقيل: إنّه انضمّ إلى البراهمة، لكن ربّما كان هذا الخبر لا يخلو من المبالغة. ونظراً لإجادته اللغة العربية والفارسية فمن المعقول والمقبول ظاهرياً أنّه قد انغمس في أساليب ومفاهيم أولئك الأساتذة المسلمين من الصوفية، فقد قيل: إنّه قد أصبح من «الدراويش»، وإنّه أصبح «استاذاً» إذ ربما حدث ذلك، ولكن مدّة إقامته في الهند كانت قصيرة غير كافية لرجل أجنبي للارتفاع إلى المراتب العليا في المذاهب الدينية في نظام قاسٍ كالنظام الذي كان سائداً هناك، على حدّ تعبير بيتر برينث[٢٥].

أمضى بورتون حوالى سبع سنوات من الإقامة في الهند، وقد خاض فيها تجربة خاصّة لا تخلو من غرابة وثراء واستحقاقات. ولمّا رأى أنّ كلّ طرق التقدّم في الهند قد سُدّت في وجهه طلب إجازة مرضية مطوّلة وعاد إلى أوروبا، حيث أمضىٰ أربع سنوات في الدراسة والكتابة[٢٦].

ورغم أنّه عاد إلى بلاده مثقلاً بأوزار الفشل وقد أنهكه المرض والحمّىٰ.. غير أنّ حادثين حاسمين صادفاه في انگلترا وفرنسا بدّلا مجرىٰ حياته. ففي بولون قابل الفتاة ايزابل التي كان ينوي مؤجّلاً الزواج منها (ولكن تلك النيّة كانت حقيقة واقعة بالنسبة إليها) والأمر الثاني هو أنّه عرض نفسه للعمل مع الجمعية الجغرافية الملكيّة في لندن لاكتشاف ما وصفه بـ «البقعة الشاسعة البيضاء في خرائطنا التي تدلّ إلى المناطق الشرقية والوسطىٰ في شبه الجزيرة العربية» وكانت خطّته تقضي بالنزول في مسقط وعبور الربع الخالي إلى مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة.

كانت مسألة استكشاف المناطق البعيدة في منتصب القرن التاسع عشر، تثير الاهتمام بقدر ما يثير الاهتمام اليوم اكتشاف الفضاء الخارجي. ولم يكن العثور على مموّل لمشروع مفصّل ومدروس أمراً صعباً. وعندما تقدّم

بورتون بمشروع رحلته تبنّته «الجمعية الملكية الجغرافية» فوراً. إلّا أنّ «شركة الهند الشرقيّة» التي كان ما يزال يعتبر موظّفاً فيها، رفضت الرحلة على اعتبار انّها خطيرة. وبدلاً من ذلك سُمح لبورتون بإجازة إضافية لدراسة اللغة العربية في «المناطق التي تدرّس فيها اللغة بجدّية» فغيّر بورتون خطّته وقرّر العبور من مكّة المكرّمة إلى مسقط ومنها بحراً إلى الهند قبل أن تنتهي إجازته. وكان يعتقد أنّ زيارة مكّة المكرّمة، واجتياز مناطق مجهولة في شبه الجزيرة العربية وحصوله على لقب حاج، قد تساعده في رحلات لاحقة في المناطق المسلمة، وكذلك في موضوع شراء الأحصنة العربية للجيش البريطاني في الهند[٢٧].

وهكذا قرّر أن يبدأ رحلته، فتوجّه من التو صوب مصر؛ ليشرع من هناك بمغامرته الكبرىٰ.. وليقتحم التاريخ من أبوابه الواسعة.

● **في الطريق إلى مكّة**

بعد أن أكمل الاستعدادات جميعها أبحر من انگلترة إلى الاسكندرية، في اليوم الثالث من نيسان (أبريل) ١٨٥٣م، باسم المرزا عبدالله من بوشهر. ويقول سيتون ديردون مؤلّف كتاب «الفارس العربي»: إنّه قبل أن يتوجّه إلى مهمّته علم أنّ رحّالة انگليزياً يدعى «فالين Wallin» كان قد تمكّن من الدخول إلى مكّة والحجّ مع الحجّاج في ١٨٤٥، لكنّه لم يستطع تدوين شيء عمّا فعل ورأى؛ لأنّه كان خائفاً على حياته، بعد أن لاحظ أنّ اثنين من اليهود قد اكتشف أمرهما في مكّة تلك السنة، فقتلهما الحجّاج الهائجون شنقاً. فقرّر أن يستفسر منه عن أشياء كثيرة قبل أن يقدم على الاضطلاع بمهمّته، وكتب له بذلك، لكن كتابه لم يصل إلى فالين إلّا بعد أن كان قد توفّي؛ ولذلك عمد إلى دراسة ما كان قد كتبه بيركهارت قبله من تفصيلات، فدرسه دراسة مستفيضة، واستعدّ للرحلة على ضوء ما جاء فيها[٢٨].

وفي طريقه إلى الشرق، كان يعمل على إتقان دوره كمسلم في تفاصيل الحياة اليومية، منتحلاً شخصية نبيل فارسي، لكن بعد وصوله إلى مصر قرّر

التخلّي عن هـويّته الفـارسية.. واتّخـذ بدلاً منها هـويّة درويش مـتجوّل[٢٩]. وعن سبب إقدامه على هـذه الخـطوة، يقول بـورتون: «لقـد أصـلحت لقـبي وعدّلته من مـيرزا عـبدالله إلى الشـيخ عبدالله. إذ ليس هنالك مـن شـخصيّة مناسبة للتخفّي في العالم الإسلامي أكثر من شخصية الدرويش. فهذه الشخصية يمكـن لأيّ رجـل مـن أيّ طـبقة أن يـتلبّسها، مـن أي عـمر أو مـن أي مذهب، فالنبيل الذي أُهـين في بـلاط أحـد المـلوك يمكـنه تـلبُّس تـلك الشـخصية، وكـذلك الفـلّاح الذي لا يرغب لكسله في حـراثـة الأرض، أو أولئك الفاسقون الذين تعبوا في مسالك الحـياة، أو أولئك الشـحّاذون الذيـن ينتقلون من بـاب إلى بـاب.. جـميعهم يسـتطيعون أن يـصبحوا دراويش. وفـوق ذلك فـالدراويش يسـمح لهـم بـتجاوز أو تجـاهل أصـول الأدب والمـعاملة كأشخاص قد انسلخوا عـن المجـتمع، وتـوقّفوا عـن الظـهور عـلىٰ مسرح الحياة. فهو يستطيع أن يصلّي أو لا يصلّي حسبما يريد. ويمكنه أن يتزوّج أو يظلّ عازباً حسب رغبته، ويمكنه أن يرتدي الملابس أو لا يرتدي شيئاً، ولا يمكن أن يُوجَّه أي سؤال لذلك المتشرّد المعفى من المسؤوليات، لمـاذا أتىٰ هـذا المكان أو ذاك؟».

ثمّ يضيف بورتون بشكـل طـريف: «كلّما كان الدرويش مـتكبّراً مـتعجرفاً على الناس زاد احترامهم له»[٣٠].

على أنّ بورتون عاد وبـدّل هـويته وجنسيّته، بعد فترة مـن تـنكّره بـزيّ درويش، مـنتحلاً شـخصية أُخـرى، كانت هذه المرّة مواطناً بـريطانياً مـن أصـل أفـغاني درس الطبّ في الهـند. وكان لون بشرة بورتون (ربمـا بـفضل أصوله الغجريّة) قريباً من العـرب ممّـا ساعده في تنكّره.

وروى بورتون أنّه اشترىٰ عدداً من الثياب الأنيقة لرحلته؛ ذلك أنّه اكتشف أهمّية الإناقة في منطقة «تنظر إلى الذين لا يهتمّون بمنظرهم كفقراء، وإلى الفقير كنصّاب، إلّا إذا كان ينتمي إلى طريقة أو زاويـة ديـنية»[٣١]، وكـان بـين مشترياته أيضاً مـظلّة صـفراء واسـعة «تشـبه حـديقة مـرتفعة الأعـناق»،

ومشط خشبي، وظرف من جلد الماعز، وسجّادة فارسيّة «التي إلى جانب كونها تكاية فهي أيضاً كرسي وطاولة ومنبر ووسادة قطنية.. كذلك اقتنىٰ خنجراً ومحبرة من النحاس، ومشكاك أقلام، وإبراً، وعلبة نحاسية خضراء «قادرة على تحمّل السقوط عن ظهر جمل مرّتين في النهار». وكانت موازنته للرحلة ٢٥ ليرة انگليزية ذهباً، لفّها في حزام تحت ثوبه[٣٢].

ويبدو أنّ بورتون كان معجباً بطريقة الحياة في مدينة الاسكندرية وبما أسماه بـ «الكيف» الذي وصفه كالتالي: «التراخي اللذيذ، والراحة الحالمة، وبناء القصور الخياليّة، وكلّ ما يناقض الحياة المركّزة والمكثّفة والنشيطة في أوروپا..» ويمضي بورتون في وصفه هذا: «في الشرق لا يحتاج المرء إلى أكثر من الراحة والظلّ. إنّه يرتاح سعيداً على حافّة جدول يخرخر أو في ظلّ شجرة عاطرة، يدخّن غليوناً أو يحتسي فنجاناً من القهوة، أو يتناول كوباً من الشراب، لكنّ الأهمّ من ذلك أنّه لا يزعج جسده.. إلّا قليلاً، معتبراً أنّ حدّة المحادثة ومرارة الذكريات والإغراق في التفكير أُمور مفسدة كثيراً للكيف!»[٣٣].

لم يطل الوقت به، حتّى غادر بورتون الاسكندرية متوجّهاً إلى القاهرة التي وصلها على ظهر مركب صغير، وليستقرّ به المقام في فندق صغير، وراح يمارس مهنته كطبيب، وذاعت شهرته بسرعة، حين استطاع أن يشفي عبدتين حبشيتين من «الشخير»، والأهمّ من ذلك أنّه التحق فيما بعد بجامعة الأزهر، لمتابعة الدراسات الدينية وإتقان اللغة العربية.. تحسّباً للوصول إلى مكّة المكرّمة. فقد كان عرف أنّه ليس من الضروري للمسلم ـ أو لمدّعي الإسلام ـ أن يكون ضالعاً في اللغة العربية، لكن من الضروري له أن يكون ملمّاً بشؤون دينه والفرائض.

أضاف بورتون إلى موازنة السفر ٨٠ جنيهاً أُخرى، وبدأ السعي للحصول على جواز سفر. واتّجه أوّلاً إلى القنصل الفارسي الذي طلب ٤ جنيهات لقاء ذلك، فثارت ثائرة

بورتون الذي أصرّ على أن يدفع جنيهاً واحداً! وقام من بين معارفه من دلّه على رئيس «الزاوية الأفغانية» في الأزهر، وكان هذا رجلاً طيّب القلب، فأعطاه الوثيقة اللازمة لسفره لقاء شلن واحد(٣٤).

ولنزعته الفيكتورية وما يتّصف به الغربيّون عموماً من غطرسة، راح بورتون يكيل السخرية اللاذعة لهذا الرجل الذي قدّم إليه خدمة بلا مقابل، وفيما كان بورتون يستعدّ للرحيل تعرّف إلى نزيل في الفندق الذي يقيم فيه، وهو ضابط ألباني كان قادماً من الحجاز في إجازة، ودعاه الضابط إلى غرفته، فلبّى الدعوة، وهناك وضع كلّ منهما خنجره جانباً وراحا يتعاطيان الخمر، ثمّ أخذا يدعوان النزلاء الآخرين إلى مشاركتهما، إلى أن تحوّل المنزل إلى ساحة للهو والصخب، واجتمع الجيران يؤنّبون السكارى(٣٥).

في صباح اليوم التالي بدأ «الحاج والي» وهو مرشده ومعلّمه الخاص بإسداء النصح له قائلاً: «ليتك تبدأ في رحلة الحجّ حالاً»، وقد سُرّ بورتون من هذه النصيحة وعمل بها حالاً(٣٦). فترك القاهرة في أسرع وقت ممكن، وعثر على بدوي من سيناء متّجه في الطريق نفسها، فاستأجر جملين بقيمة جنيه واحد، وتوجّه مع خادم هندي إلى السويس. وفي الطريق التقى بعض التّجار المحترمين من المدينة الذين كانوا عائدين إلى بلادهم، ومعهم شاب من مكّة كان تعرّف إليه في القاهرة ويدعىٰ محمد البسيوني، الذي أخذ بورتون في رعايته طوال الرحلة(٣٧).

عن هذا الشاب يحدّثنا بورتون بأنّه من مواليد مكّة، وكان في حوالى الثامنة عشرة من العمر، وكان حنطي البشرة، عالي الملامح، جسوراً. وقد قرّر هذا الشاب أن يبقىٰ معبورتون ويقوم بخدمته حتّى انتهاء الحجّ. ويقول عنه بورتون: إنّه كان ملمّاً بالقراءة ولكن بصورة بسيطة، ويستطيع كتابة اسمه وهو ماهر في المساومة، وقد تعلّم التكلّم باللغة العربية الفصحىٰ وهو في مكّة، كما أنّه يستطيع أن يتخلّص بسهولة وطلاقة من مواقف الشبهة، وكان يصلّي ويقوم بمناسك الحجّ بكلّ إتقان.

وفي السويس استقل بورتون سفينة تسمّىٰ سلك الذهب، وقبل الانطلاق حصلت مشاجرة بين ركّابها سرعان ما تدخّل بورتون لحسمها، كما يزعم، وفي ظهيرة يوم ٦ تموز (يوليو) عام ١٨٥٣م انطلقت سفينة الحجّاج التي هدأت الأُمور فيها.. ويقول بورتون: إنّه لم يسعه إلّا النظر إلى العلم البريطاني الذي كان يرفرف فوق القنصلية البريطانية في السويس. ولكن ما لبث سروره أن اختفىٰ واختنق عندما اشتدّ وجيب قلبه وخفقانه عند التفكير بالمحنة والمغامرة القادمة[٣٨]، إلّا أنّ السفينة تعرّضت للغرق في مرحلة لاحقة، كما تعرّض قبطانها للضرب المبرح، غير أنّ المسافرين وصلوا إلى ينبع في نهاية المطاف[٣٩] بعد اثني عشر يوماً. وبدأ بورتون بالاستعداد للجزء التالي من الرحلة وهو التوغّل في الداخل[٤٠] ولدىٰ نزولهم إلى البرّ داس بورتون، على ما يبدو، على شيء سام جعله يتألّم من قدمه طوال الرحلة. ومن هنا استأجرت المجموعة جمالاً كلفة الواحد منها ثلاثة دولارات واتّجهت إلى المدينة في رحلة مسافتها ١٣٠ ميلاً، استغرقت ثمانية أيّام[٤١].

● اختراق جزيرة العرب

هاهو بورتون أمام مهمّته العسيرة وجهاً لوجه، ولابدّ أن يأخذ للأمر عدّته، بمنتهى الحيطة والحذر، لاسيّما وأنّه غير مسلم يجوس خلال الديار، من جهة، فضلاً عن أنّه ينبري لأداء مهمّة سرّية محدّدة يعوّل عليها، وكذلك الدوائر التي وراءه، الشيء الكثير. ولهذا وذاك، كان عليه أن يُهيئ الاستعدادات اللازمة لخوض هذه التجربة المحفوفة بالمخاطر. وبالفعل فقد أنجز المطلوب قبل مغادرة ينبع.

كان يحمل دفتر ملاحظاته، وهو عبارة عن دفتر طويل كان يحفظه في صدره، وقد صنع هذا الدفتر وهو في القاهرة. وكان يعلّق إلى جانبه محفظة تتدلّىٰ من كتفه وتصل إلى خصره، وكانت هذه المحفظة يحمل بها نسخة من القرآن الكريم تبرّكاً، ولكنّه قسّم هذه المحفظة إلى ثلاثة جيوب، وضع ساعة وبوصلة في الجيب الأوّل، وفي الجيب الثاني وضع بعض النقود كمصروف

للجيب، وفي القسم الثالث وضع سكّيناً وبعض أقلام الرصاص وأوراقاً صغيرة يستطيع إخفاءها، وكان يستطيع أن يكتب أو يرسم على هذه الأوراق بسرعة تامّة. ثمّ ينقل نسخاً من هذه الأوراق في دفتر ملاحظاته عندما تسنح الفرصة. وفي جيب سرّي من جيوبه وضع مسدّساً ومعه خنجراً كباساً، وكان شديد الاعتماد عليه، ولم يجعل أحداً يعلم أنّه يحمل هذه الأسلحة. وكان ينظّف المسدّس ويحشوه ليلاً.

وبعد استئجار الرجال لسَوْق الجمال والحيوانات، وبعد أن جمع أمتعته ودفاتر ملاحظاته وجيوبه السرّية والمحفظة، التي لم تكن تحوي قرآناً كريماً بل كانت كاذبة موضوعة على جانبه، استعد بورتون للرحيل وهو يقول: «وفي صباح أحد أيّام منتصف شهر تموز مررنا خلال بوّابة ينبع واتجهنا إلى الشرق. وقد صاحب الحجّاج قافلة، مؤلّفة من حوالى ٢٠٠ جمل، حاملة القمح لأهالي المناطق الداخلية، وكان معهم حرس مؤلَّف من سبعة جنود من الأتراك»[٤٢].

ويمضي بورتون في ذكر المصاعب والمخاطر التي واجهت القافلة، وهي تغذّ سيرها نحو هدفها المنشود، لتصل فجر يوم ٢٥ تموز ١٨٥٣م إلى مشارف المدينة المنوّرة. وعن الانطباعات التي اعترت الحجيج وما شعر به هو شخصيّاً، كتب يقول: «عند وصولنا إلى قمّة ذلك الجبل رأينا طريقاً ضيّقاً منحدراً تتألف جوانبه من بقايا الحمم البركانية القديمة، وبعد بضع دقائق بدت المدينة المنوّرة أمامنا، وعندها أدركت معنى ذلك القول المأثور الذي يتردّد على ألسنة المسلمين في طقوسهم الدينيّة، وهو عندما تقع عينا الحاجّ على أشجار المدينة عليه أن يرفع صوته بالتسبيح والشكر والثناء على رسول الله بأبهج الصلوات والدعوات الصالحات، إذ إنّه من خلال ذلك المنظر الجميل لم يكن هنالك من شيء أثّر على تفكيرنا ووجداننا أكثر من منظر تلك البساتين والحدائق الواقعة تحتنا».

وحالما ارتفعت أصوات رفقائه بالصلوات والدعوات الصالحات

والشكر، بدأ بورتون للحظة من الزمن وكأنّه قد أُخِذ بنفس حماسهم، ولكن سرعان ما هدأت أحواله وشرع في كتابة الملاحظات والرسوم بكلّ برود كعادته[٤٣]، وممّا كتبه: «عندما نظرنا شرقاً كانت الشمس تطلع من وراء تلال منقّطة بأشجار صغيرة، وكانت الأرض مصبوغة بالذهبي والارجواني، أمامنا امتدّ سهل واسع، وإلى اليسار حاجز من الحجارة، جبل أحُد الشهير الذي ظهرت عند أسفله النباتات وقباب بيضاء»[٤٤]، وفي أسفل السهل على بعد ميلين منّا، كانت تربض المدينة المنوّرة، فتبدو كأنّها مكان كبير متّسع، لكنّنا ما دنونا وتبيّناها عن قرب حتّى تبيّن لنا أنّ انطباعنا ذلك كان شيئاً وهميّاً[٤٥].

ويصف بورتون بعد ذلك ساعة الوصول والاستقبال فيقول خلال هذا: إنّ العرب يبدون في هذه المناسبات من العواطف أكثر ممّا تبديه سائر الأقوام الشرقية التي يعرفها، ففي طبيعتهم من الحنان والمحبّة الشيء الكثير، وهم أكثر تعبيراً عن عواطفهم بكثير من الهنود[٤٦].

ومع ذلك فقد شرع في القيام بالشعائر الضرورية (أو الطقوس على حدّ تعبيره) والتي يصفها بالتفصيل. ومن المفارقات التي تعرّض لها، بسبب إصابته بألم حاد في رجله لحظة نزوله إلى ينبع، أنّه بدأ زيارة المدينة راكباً على حمار!، وقد أمّن له الشيخ حامد، وهو أحد الحجّاج الذين رافقوه من القاهرة، حماراً عاري الظهر به عرج في إحدى رجليه وتعوزه أُذن واحدة، ولكنّ الشيخ حامداً رافقه إلى المسجد النبوي، حيث دخلوا من باب الرحمة من خلال درجات.

ورغم أنّه أبدى اندهاشه، لأوّل وهلة، بيد أنّه لم ينس معاييره الغربية في رؤيته للأشياء: «كنت مندهشاً من ذلك المنظر البسيط المبهرج لأقدس مكان في جميع أنحاء العالم الإسلامي»، ثمّ يضيف: أنّ المسجد كان شديد الشبه بمتحف للفنون من الدرجة الثانية! أو بمكان تُعرض فيه التحف وهو مملوء بالزينة والزخارف العادية الشعبية المألوفة!

أمّا عن رؤيته لمقام النبيّ محمّدﷺ

فيقول: «بعد أن حدّقت بعيني برهة من الزمن رأيت ستارة مكتوباً عليها بخطوط ذهبية أنّ قبر رسول الله والخليفتين بعده يقع خلفها، وفوق قبر النبيّ تدلى الكوكب الدرّي وهو مجموعة من اللآلي والماس رُكّبت بشكل نجم وعُلّقت في الظلام، باعتقاد أنّ عيون البشر لا تستطيع تحمّل إشعاعها. وكان ذلك الكوكب رائعاً حقّاً.. إنّ هذا الكوكب يشبه ماسّة «كوه نور Koh-Nur» الشهيرة»[٤٧].

ثمّ يمضي يصف المدينة المنوّرة بدقّة مرشد السيّاح. ويلاحظ من الرحلة التفصيليّة الرائعة التي طبعت بجزأين كبيرين أنّ السير ريتشارد لم يترك شاردة وواردة إلّا ذكرها في نصوص الرحلة أو شروحها وهوامشها الضافية. ومع ما في هذه الرحلة من تحامل وأغلاط في فهم الإسلام وشريعته، فإنّها تعدّ شيئاً ممتازاً من ناحية البحث والتحقيق، ودراسة لها قيمتها التاريخية والجغرافية[٤٨].

● **في رحاب المدينة المنوّرة**

في فصل خاصّ يفرده بورتون لزيارة قبر النبيّ ﷺ، يستهلّ الكتابة بالخوض في موضوع المفاضلة بين مكّة والمدينة. فيقول: إنّ المسجد النبوي هو أحد الحرمين، وثاني الأماكن المقدّسة الثلاثة المعدّة للعبادة، أمّا الاثنان الآخران فهما؛ المسجد الحرام في مكّة، والمسجد الأقصى في القدس الشريف.

ثمّ يوضّح الفرق بين استحباب (زيارة) الرسول ﷺ ووجوب فريضة الحجّ إلى بيت الله الحرام.. ليستعرض الآراء حول منزلة المسجد النبوي ومكانته الروحية، خاصّة لدى المذاهب الإسلامية، وأنّ الشرف الذي حظيت به المدينة يعود إلى أنّ ثراها قد ضمّ رفات الرسول الأكرم ﷺ، ثمّ يعرج إلى تبيان موقف الوهابيّين قائلاً: «ولمّا كان الوهابيّون من جهة أُخرى لا يعترفون بشفاعة الرسول يوم القيامة، ويعتبرون قبر الرسول قبراً مثل سائر القبور وشيئاً لا يُعتدّ به، ووسيلة للعبادة (الوثنية) التي يمارسها بعض المسلمين (الحمقى)، فقد نهبوا المبنى المقدّس بعنف ينطوي على التدنيس، ومنعوا الزوّار القادمين من البلاد النائية عن الدخول

إلى المدينة[٤٩].

بعد هذه الإطلالة، يشرع في وصف مظهر الحرم النبوي الشريف، فالمسجد متوازي الأضلاع يناهز الأربعمائة وعشرين قدماً في الطول والثلاث مائة وأربعين في العرض، وهو مثل سائر المباني الدينيّة الإسلامية المعتادة مبنىٰ فيه ساحة وسطىٰ مكشوفة تسمّى الصحن، أو الحوش.. يحيط بها بهو له صفوف عديدة من الأعمدة على شاكلة الأديرة الايطالية. والأروقة فيها سقوف منبسطة، لكنّها مقبّبة من فوق بقبب تشبه القبب الأسبانية نصف التاريخية.. ويمتدّ على طول الجدار الشمالي القصير من داخله الرواق المجيدي المسمّىٰ باسم السلطان الحاكم (عبد المجيد)، كما يشغل الجدار الغربي الطويل رواق باب الرحمة، والجدار الشرقي رواق باب النساء، ويستمدّ الرواق الأخير اسمه هذا من قربه من قبر السيّدة فاطمة عليها السلام ويدخل النساء منه عندما يردن زيارة القبر المطهّر.

ويحتضن الطول الداخلي للجدار الجنوبي القصير صفّ الأعمدة الرئيس المحيط بالروضة، أي الموضع المحتوي على جميع ما هو مقدّس في الحرم. وهذه الأروقة الأربعة المقدّسة من الخارج تحملها من الداخل أعمدة تختلف بعضها عن بعض في الشكل والمادّة. وقد بُلّط الرواق الجنوبي الذي يقوم فيه الضريح بقطعة جميلة من الرخام الأبيض المشغول بشغل التطعيم، المغطّىٰ هنا وهناك بالحصر الخشنة التي فُرش فوقها السجّاد غير النظيف المتآكل بأرجل المؤمنين[٥٠].

ثمّ يستعرض المنائر في الحرم الشريف، ويبلغ عددها خمساً، لكن منارة واحدة هي الشكيلية التي تقوم في الزاوية الشمالية الشرقية من المبنىٰ قد هُدّمت وما تزال تُبنىٰ بشكل جديد. أمّا المنائر الأربعة الأُخرى فهي؛ منارة باب السلام، منارة باب الرحمة، المنارة السليمانية المسمّاة باسم بانيها السلطان سليمان القانوني، والمنارة الرئيسية. ويقول بورتون: إنّ هذه الأخيرة سُمّيت رئيسيّة؛ لأنّها مخصّصة لرؤوساء المؤذّنين.. وتعلّق بمنصّات المنارتين الأخيرتين مصابيح نفطية في الأعياد

والمناسبات، مثل مناسبة وصول موكب الحجّ الشامي[٥١].

أمّا الأروقة والأعمدة المحيطة بالصحن المربّع المكشوف في الوسط أيضاً، فيمضي في وصفها بإسهاب، مبدياً عدم إعجابه فيما راح يعدّدها: «ومن بين هذه الأعمدة التي لا تستحقّ الثناء، هناك ثلاثة لها شهرة في تاريخ الإسلام، ولذلك كُتبت أسماؤها عليها بالدهان، وتتمتّع خمسة أُخرىٰ بشرف التسميات المشهورة، فيسمّى الأوّل «المخلق» لأنّه لطّخ بالخلوق في مناسبة من المناسبات.. ويقع هذا بالقرب من المحراب النبوي إلى يمين المكان الذي يصلّي فيه الإمام، كما يدلّ على البقعة التي كان الرسول الأعظمﷺ قبل اختراع المنبر يتّكئ فيها على «الاسطوانة الحنانة» ويلقي خطبة الجمعة، والعمود الآخر هو ثالث عمود من المنبر وثالث من الحجرة، ويسمّىٰ «عمود عائشة» وكذلك «اسطوانة القرعة» لأنّ الرسول على ما تقول بعض الروايات صرّح قائلاً: إنّ الناس حينما يعرفون قيمة هذا المكان سوف يستعينون بالقرعة للصلاة فيه، ويذكر في بعض الكتب باسم «عمود المهاجرين»، كما أنّ آخرين يسمّونه «المخلق» كذلك.

وعلى بُعد عشرين ذراعاً من عمود عائشة، وعمودين من الحجرة، وأربعة أعمدة من المنبر يقع «عمود التوبة» أو عمود أبي لبابة، وقد سمّي كذلك على إثر حادثة وقعت لأبي لبابة أحد الأنصار.. أمّا الأعمدة التي تقلّ في شهرتها فهي «اسطوانة السرير» التي كان من عادة النبيّ أن يجلس في موقعها للتأمّل فوق سريره المتواضع المصنوع من جريد النخل. وتشير «اسطوانة علي» إلى المكان الذي كان الإمام علي يصلّي فيه إلى جنب ابن عمّه النبيّ. وفي موقع «اسطوانة الوفود» كان النبيّﷺ يستقبل الوفود والرسل والمبعوثين من البلاد الأُخرى، وتدلّ «اسطوانة التهجّد» على المكان الذي كان النبي يمضي ليله فيه مصلّياً متهجّداً. وأخيراً «مقام جبرائيل» الذي لم يجد بورتون تفسيراً لاسمه الآخر «مربعة البعير».

وتطلّ الأروقة الأربعة في مسجد

المدينة على صحن أوسط مكشوف متوازي الأضلاع في شكله. والشيء الوحيد الذي يلفت النظر فيه سياج خشبي مربّع الشكل يحيط بتربة حسنة الارواء تدعىٰ «حديقة سِتّنا فاطمة»، وتوجد فيها اليوم (أي يوم زيارة بورتون في ١٨٥٣م) اثنتا عشرة شجرة يهدي خصيان المسجد تمرها إلى السلطان وعظماء المسلمين. وتوجد بين النخلات بقايا لسدرة قديمة يُباع ثمرها بأسعار عالية. أمّا البناية الصغيرة التي ذكرها بيركهارت قبل أربعين سنة، وقال: إنّها توجد بالقرب من هذا الموقع، فقد هدّمت قبل ثلاث أو أربع سنوات، وكانت تسمّىٰ «قبّة الزيت» أو «قبّة الشمع»[٥٢].

وينهي بورتون فصله الطويل الذي كرّسه لوصف الحرم الشريف (الفصل السادس عشر من الجزء الأوّل) بالتشكيك في صحّة المكان الذي دُفن فيه النبي الأعظم، مستنداً إلى أسباب تافهة. ومن بينها أنّ الشيعة ربما نقلوه إلى مكان آخر، حينما ظلّ القبر المقدّس بعهدتهم قروناً عديدة! ومعلوم أنّ الأسباب التي اعتمدها والرأي الذي رجّحه كلّها لا تستحقّ الرد لتهافتها، إن لم تكن ذات غرض سيء[٥٣].

● **المدينة: التاريخ.. والحاضر**

وأفرد بورتون الفصل السابع عشر (من الجزء الأوّل) لتاريخ المسجد النبوي، تطرّق في بدايته إلى تاريخ المدينة القديم، والأقوام التي قطنتها، وعلاقة النبيّ ﷺ بالمدينة وكيفيّة وقوع الهجرة المباركة.. الخ.

وعن تشكيلات الحرم النبوي فيقول: إنّ هذه التشكيلات قد تغيّرت كثيراً منذ أيّام الرحّالة بيركهارت (١٨١٤م). وعلى هذاالأساس لم يعد «شيخ الحرم» من الخصيان، وكان على أيّام بورتون رجلاً من پاشوات الأتراك يدعىٰ عثمان، ونائبه «رئيس الأغوات».. ويطلق على رئيس الخزانة «مدير الحرم»، وله مساعد يُسمّىٰ «نقيباً»، وهناك شيوخ ثلاثة للخصيان البالغ عددهم حوالى مائة وعشرين. وهؤلاء ينقسمون إلى ثلاث طوائف: (البوّابون، الخبزية، البطّالين).

وهناك إلى جانب الخصيان عدد من

الخـــــدم الأحـــرار يـــطلق عـــليهم (الفرّاشون).. وهناك طـبقة دنـيا مـن الخـدم الذين يقومون بفرش الساحات وسقي الحدائق وتقديم الماء للزوّار.

أمّا التشكيلات الدينيّة فـهي عـلى نطاق أوسع من التشكيلات الإداريـة، فهناك القاضي الذي يُبعث كلّ سنة من اسـتانبول، ويشـتغل في مـعيّته ثـلاثة مفتين: (شافعي، حنفي، مـالكي). أمّـا المـــؤذّنون، ويســمّون الرؤســاء، فـهم كـــثيرو العـــدد، ٤٨ ـ ٤٩ مـــؤذّناً، يترأسهم سـتّة مـن المـؤذّنين الكـبار، وهـــؤلاء يـرأسهـم شـيخ الرؤوسـاء الذييحـقّ له فقط أن يؤذّن مـن فـوق «المنارة الرئـيسيّة». وهـناك في الحـرم خمسـة وأربـعون خـطيباً، وهـم تـبع لرئـيس الخـطباء. وتـصرف الأمـوال الشرعية على مستحقّيها مـن: (العـلماء والمـــدرّسين الذيـــن يـــعظون، الأئمّـة والخـطباء، السـادة مـن نسـل النـبيّ، الفقهاء والملالي، العوام بمن فيهم أهالي المدينة والمجاورون).

ثمّ يتطرّق بورتون إلى سكّان المدينة وأهمّ الأسر القاطنة فـيها، ليـعرج إلى ذكر النخاولة الشيعة فيورد نقاطاً وتهماً ما أنزل الله بها من سلطان عنهم، ولعلّ ذلك من خيال المتعصّبين الذين نقلوا له هذه الأخبار عن مثل هذه الطبقة مـن الناس، التي كـانت تشـتغل في صـدر الإســـلام في الفـــلاحة عـــند الإمـام الحسن عليه السلام..

ويحـلّل بـعد ذلك أوضـاع سكّـان المدينة من جميع الوجوه بفصل يستغرق ثمانٍ وعشرين صفحة كاملة. وقـد زار بورتون مقبرة البـقيع زيـارة خـاصّة، وهو يقول: إنّ هناك خـبراً يـقول: إنّ سبعين ألف قدّيس، وفي روايـة مـائة ألف، سوف يبعثون يـوم القـيامة مـن البقيع، وإنّ عشرة آلاف صحابي وعدداً لا يُحصىٰ من السادة، قد دُفنوا في هذه المـقبرة عـلى مـرّ السـنين فـاندرست قبورهم. ويشير إلى ما تعرّضت له هذه المقبرة من عبث وتخريب أيّـام الأمـير سعود؛ لاعـتقاد الوهـابيين بأنّ خـير القبور الدوارس! «ويرجع الفـضل لمـا بُني منها بـعد ذلك إلى السـلطان عـبد الحميد ومحمود..».

ويـقول بـورتون كـذلك: «.. وقـد

دخلت المقبرة المقدّسة مقدِّماً رجلي اليمنىٰ كما لو كنت أدخل إلى المسجد، وحافي القدمين لأتحاشىٰ اعتباري من الرافضة، ثمّ بدأنا بقراءة الزيارة العامّة المألوفة... وبانتهائها رفعنا أيدينا وقرأنا الفاتحة قراءة خافتة، ومسحنا أيدينا على وجوهنا وتحرّكنا».

وبشيء من التفصيل يستعرض أهم المراقد هناك، وعلى التوالي: [قبر الخليفة عثمان، أبي سعيد الخدري، حليمة السعدية، قبور شهداء البقيع الذين قتلهم مسلم قائد كبير الفاسقين يزيد(٥٤)، إبراهيم بن النبيّ ﷺ، نافع بن عمر، مالك بن أنس، عقيل بن أبي طالب، أزواج النبي جميعهنّ عدا خديجة، بنات النبيّ].

وبعد أن يصف بورتون الشحّاذين وأنواعهم وكيف يستقبلون الزوّار يقول: «.. وقبل أن نترك البقيع وقفنا وقفتنا الحادية عشرة في القبّة العبّاسيّة، أو قبّة العبّاس عمّ النبيّ.. هذه القبّة التي بناها الخلفاء العبّاسيون من قبل في ٥١٩ للهجرة أكبر وأجمل جميع القبب الأُخرىٰ، وتقع على يمين الداخل من باب المقبرة. ويدلّ على أهمّيتها تجمّع الشحّاذين بقربها، فقد جاءوا إليها وتكأكأوا عليها حينما وجدوا الايرانيين متجمّعين فيها بكثرة وهم يبكون ويصلّون.. وتوجد في القسم الشرقي قبور الحسن بن علي سبط النبيّ، والإمام زين العابدين بن الحسين، وابنه محمّد الباقر (الإمام الخامس)، ثمّ ابنه الإمام جعفر الصادق، وهؤلاء جميعاً من نسل النبيّ وقد دُفنوا في نفس المرقد الذي دُفن فيه العبّاس بن عبد المطّلب عمّ النبيّ.. وبعد أن خرجنا وتخلّصنا من أيدي الشحّاذين الصغار وجهنا وجهنا نحو الجدار الجنوبي الذي يوجد بقربه قبر ينسب إلى السيّدة فاطمة وقرأنا الدعاء المعروف»(٥٥).

وفي حاشية مستفيضة استعرض بورتون الغموض الذي يكتنف مدفن السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام والروايات المتداولة حول مكان دفنها.. لينتقل مباشرة إلى الحديث عن مساجد المدينة التي يوجد فيها، على ما يذكر بورتون، ما بين الخمسين وخمسة وخمسين مسجداً وبقعة مقدّسة، لا يعرف معظمها

اليوم حتّى أهالي المدينة أنفسهم، وذكر أهمّها نقلاً عن أفواه الناس، بشيء من التفصيل، وفيما عدا هذه أُحصيت أسماء، أسماء فقط، أربعين مسجداً آخر..[٥٦].

على أنّ بورتون الذي استغرق في وصف أدقّ التفصيلات عن خصوصيات المدينة المنوّرة، لا يفوته تذكير القارئ أو الدوائر المعنيّة بمهمّته على السواء، بأنّ حجم المدينة أكبر بمرّة وثلث من حجم مدينة السويس، أو بقدر نصف حجم مكّة، وهي عبارة عن مكان مسوّر يؤلّف شكلاً بيضويّاً غير منتظم ولها أربع بوّابات.. وهناك بنايات ضخمة وأبراج مزدوجة متقاربة.. وفي داخل المدينة الظليل ترى الجنود يحرسون المدينة، وأصحاب الجمال يتشاجرون، وكثيراً من الرجال الذين لا عمل لهم يتسكّعون.

ثمّ يصف البنايات العامّة فيقول: إنّ هناك أربعة خانات كبيرة وبضع مقاهٍ صغيرة وحمّاماً ممتازاً، ويقدّر عدد السكّان بـ (١٦) ألف نسمة... ويقول: إنّ المدينة تشبه جبل طارق بالنسبة للبدو الوهابيّين[٥٧].

وبعد أن اطلع على ما في المدينة وأماكنها المقدّسة، وانتهاء فترة الاستجمام والاسترخاء، تلك الأيّام التي اعتبرها أيّام راحة حقيقيّة، بالنسبة للأخطار القادمة التي كانت ماثلة أمام عينيه كلّ يوم، كان عليه أن يتوجّه مع موكب الحجّ الشامي إلى مكّة في يوم ٣١ آب ١٨٥٣م[٥٨]، وهكذا بدأ يستعدّ للرحلة على عجل، وجمع مؤونة ١٥ يوماً له ولمرافقه محمّد، واستأجر من بدوي ناقتين بـ (٢٠) دولاراً. وكان أصدقاؤه نصحوه بأن يأكل مرّة كلّ ٢٤ ساعة مع مرافقيه لكي «يبقىٰ في معدتهم ملح من عنده، فذلك قد يمنعهم من خيانته أو الغدر به»! كانوا يسافرون في الليل، وفي إحدى المراحل ساروا من الساعة الثالثة بعد منتصف الليل وحتّى الحادية عشرة من صباح اليوم التالي[٥٩].

● بورتون في مكّة

في ١١ أيلول (سبتمبر) ١٨٥٣م، وصل بورتون إلى مكّة المكرّمة بعد رحلة متعبة حافلة بالمخاطر، ليستقرّ به

المقام في بيت مرافقه الشاب محمّد البسيوني الذي كان خير دليل له، خاصّة وأنّ أهل مكّة أدرىٰ بشعابها.

يقول بورتون عن مكّة حينما وصلها لأوّل مرّة: إنّه لم يجد فيها ذلك الجمال الرشيق المتناسق الذي يتجلّىٰ في آثار اليونان وايطاليا، ولا الفخامة البربرية المتجلّية في أبنية الهند، ومع هذا فقد كان المنظر غريباً فريداً في بابه بالنسبة إليه[٦٠]، وكتب: «شاهدت احتفالات دينية في مناطق مختلفة، لكنّني لم أرَ مثل هذه المشاهد المهيبة والرائعة في أي مكان آخر»[٦١].

ويقول كذلك: «.. ويمكنني أن أقول حقّاً: إنّه من بين جميع الحجّاج الذين كانوا يتعلّقون بأستار الكعبة وهم يبكون، أو يضغطون بقلوبهم النابضة على الحجر، لم يكن هناك أحد في تلك اللحظة أشدّ شعوراً وأطغىٰ عاطفةً من (الحاج) القادم من بلاد الشمال، فقد بدا لي كأنّ أساطير العرب الشعرية جميعها كانت تنطق الصدق، وكأنّ أجنحة الملائكة الخفّاقة، وليس نسيم الصبح العذب، كانت هي التي تحرّك الكسوة السوداء التي تجلّل الكعبة المقدّسة. لكنّني لابدّ لي من أن أعترف اعترافاً متواضعاً بأنّ عاطفة أولئك الحجّاج المتدفّقة كان مبعثها الحماسة الدينيّة، أمّا عاطفتي فقد كان مبعثها نشوة الكبرياء المطمئن»[٦٢].

لقد كتب بورتون عن زيارته إلى المدينة ومكّة بتفصيل مسهب استغرق مجلّدين كبيرين، لكنّ الملاحظ أنّ المومىٰ إليه كتب عن جميع ما دوّنه سلفه بيركهارت، ولكن بطريقة مختلفة وتعليقات لا تشبه تعليقات بيركهارت في كثير من المناسبات. غير أنّ الوصف العام لا يختلف عند الاثنين اختلافاً جوهرياً[٦٣]؛ ولذلك نجد بورتون يشير إلى أنّه قد وصف ما رآه قدر الاستطاعة، ولكنّه اعترف أنّه لا يستطيع أن يصل إلى دقّة بيركهارت الذي يعترف بورتون أنّه مَدين له ليس بالشكر والامتنان فحسب، بل بالاقتباس عنه بصورة جلية واسعة واضحة!، ولكن تعليقات بورتون على العموم كانت عملية واقعية[٦٤].

فهو يقول: «وكان جمهور من الناس

قد احتشد حول الكعبة، ولم أكن راغباً في أن أقف حاسر الرأس حافي القدمين في شمس أيلول. فصاح أحدهم يقول: افتحوا الطريق للحاج الذي يريد أن يدخل البيت، وعند ذاك أفسح المتجمهرون الطريق.. وتقدّم رجلان قويّان من أهالي مكّة كانا يقفان تحت الباب المرتفع، فرفعاني بأذرعهما بينما سحبني رجل ثالث من أعلى إلى داخل المبنىٰ، فحيّاني في المدخل عدد من خدّام الكعبة وهم من المكيّين سمر البشرة الذين كان أشدّهم سمرة وبساطة شاب من أُسرة بني شيبة سدنة الكعبة.. وسرعان ما جلس على مسطبة خشبية في ركن الكعبة الأيسر، وابتدرني بالسؤال رسميّاً عن اسمي وقوميتي وتفصيلات أُخرى. ولمّا كانت أجوبتي وافية بالمرام أمر الفتىٰ محمّداً الذي كان يصحبني بأن يقودني حول المبنىٰ ويرتّل أمامي الصلاة، ولا أنكر أنّني حينما نظرت إلى الجدران الخالية من الشبابيك، ولاحظت وجود السدنة بالباب، وجمهور (المتعصّبين) الهائجين في أسفل الكعبة، شعرت وكأنّني فأرة في المصيدة، على أنّ ذلك لم يمنعني عن ملاحظة ما كان يحيط بي بدقّة خلال صلاتنا الطويلة، ورسم مخطّط تقريبي بقلم الرصاص فوق قماش إحرامي الأبيض»[٦٥].

ثمّ يتحدّث بورتون عن الكعبة وأركانها الأربعة، وعن باب التوبة، ليستعرض بشيء من التفصيل كسوة الكعبة المشرّفة، ومن أيّ قماش تصنع، وعمّن بدأ بتجهيز الكعبة، وكيف تطوّر الأمر على مرّ العصور التاريخية.. وآخرها العهد العثماني.

ويقول بورتون في الأخير: إنّ الكسوة في عهده (١٨٥٣م) كانت تصنع في مصنع النسيج القطني المسمّىٰ «الخرنفش» في باب الشعرية في القاهرة، ثمّ يذكر أنّ الكسوة تتألّف عادةً من ثماني قطع، اثنتان منها لكلّ وجه من أوجه الكعبة، ويغطّي محلّ اتّصال القطعتين بحزام ذهبي المظهر، ثمّ تُبطّن بخام أبيض وتجهّز بحبال قطنية. ويُقال: إنّ الكسوة كانت تنسج خلال حياكتها الآيات القرآنية كلّها فيها.. وحينما تتمّ حياكة الكسوة في الخرنفش

تـنقل إلى مسـجد سـيّدنا الحسـين في القاهرة بموكب خاصّ، وهـناك تـبطّن وتخاط فـتكون جـاهزة للـرحـلة إلى البيت الحرام(٦٦).

● **مشاهدات.. وانطباعات**

وفي رحلة بورتون فصل قيّم كـثير الفائدة عن الحياة في مكّة، يصف فـيها مكّة نفسها وأحوال سكّانها بشيء غير يسير من التفصيل، فهو يقول عنها: إنّها تعدّ مدينة حديثة نسبيّاً، برغم أنّ منشأ بيت الله الحرام تضيع جـذوره العـميقة بين طـيّات المـاضي السـحيق.. وهـي تحتوي على ثلاثين إلى خمسة وأربـعين ألف نسمة مـن السكّـان. مـع وجـود أماكن فيها لسكنىٰ ثلاثة أضعاف هـذا العدد من الناس عـلى الأقـلّ. وتـبنىٰ بـيوتها بـالطابوق وحـجر الغـرانـيت والحجر الرمـلي المسـتمدّ مـن الجـبال المجاورة. ومنظر مكّة أشبه بوادٍ متموّج متعرِّج يمتدّ فوق هـضبة صـغيرة مـن الهضاب. ويبلغ أقصىٰ عرضها ما بـين أبي قبيس في الشرق (الذي تمتدّ عـلى سفوحه الغربيّة البلدة معظمها) وجـبل هندي في الغرب. وتقوم الكعبة في مركز هذا الخطّ(٦٧).

ويخبرنا بورتون، خلال تحدّثه عـن سكّان مكّة، أنّ بشرة أهالي مكّة كانت أكثر اسمراراً من بشرة أهـالي المـدينة، وأنّهم يـفسِّرون هـذه الظـاهرة هـناك بتأثير حرارة الشـمس اللافـحة عـلى مناخ مكّـة. ولكـنّه يـعلّق عـلى ذلك فيقول: «إنّي أفضّل أن أعزو السبب في سمـرتهم الشـديدة إلى كـثرة الإمـاء السوداوات اللواتي كنّ يأتين إلى (سوق النخاسة)..!».

ويمكن للـقارئ أن يـتصوّر لهـجته التهـكميّة عـند الإدلاء بهـذا الرأي! فبورتون، كما يقول «بيتربرينث» شأنه شأن مـعظم الغـرباء الذيـن اخـترقوا الحواجز، وتسرّبوا ودخلوا إلى مكّـة، لا تخـلو أفكـارهم مـن الازدراء والاحتقار للسكّان وذلك حين يـقول: «إنّ أهالي مكّـة طـمّاعون ومـبذِّرون» ولكنّه يعود فيقول: «من جهة أُخرى أنّ المكّيين يـتمتّعون بـصفات الصراحـة، وهـم مسـتعدّون لتـحكيم العـقل والاعتراف بـالخطإ، وليس لديهـم أي نوع مـن العـناد لدى اقـتراف الذنب،

الأمر الذي يميّز الآثمين منهم عن آثمي الشعوب الأُخرى»[٦٨].

والخلاصة التي يتوصّل إليها بيتربرينث هي: أنّ بورتون يتصرّف في حكمه كقاضٍ غير متحيّز، وليس هناك من يحاسبه على استنتاجاته فيقول: «إنّ الصفات التي تعوّض عن هذه النقائص هي شجاعة المكّي، وحبّه للإحسان، ورجولته وإحساسه المُتّقد بالشرف، وارتباطاته العائلية القويّة، واقترابه من صفة حبّ الوطن وثقافته العامّة». أمّا القسم المظلم من الصورة فينحصر في الكبرياء والتعصّب الأعمىٰ، وقلّة الدين، والجشع وحبّ الربح، وانعدام المُثل الأخلاقية، والإسراف الذي يُقصد منه التظاهر والفخفخة، ويبدو عند فحص الصورة أنّ القسم المظلم يتفوّق على القسم المضيء، مع أنّ بورتون قد وصف المكّيين في مناسبات سابقة بالذكاء والفكاهة، شأن بقيّة الساميين[٦٩].

بيد أنّ أخطر الانطباعات التي ذكرها بورتون عن أهل مكّة هو ما سمعه منهم عن مستقبل الإسلام، إذ ذكر أنّ الكثيرين ممّن عرفهم يذكرون أنّ الإسلام مكتوب له أن يصادف كثيراً من الإحن والنكبات في مقتبل الأيّام. ويخلص من هذا إلى القول: إنّ المسيحيّين المتحمّسين لنشر عقيدتهم وديانتهم في العالم يمكن أن يجدوا في وضع المسلمين الفكري هذا فرصة للانتشار والتغلغل بينهم في الأجيال المقبلة. ثمّ يذكر في حاشية له أنّ الوضع لا يحتاج إلى كثير من التنبّؤ قبل الأوان؛ ليستنتج منه المرء بأنّ الانگليز لابدّ أن تضطرّهم الأحوال السياسيّة لأن يحتلوا بالقوّة ينبوع الإسلام هذا وقبلته المقدّسة[٧٠].

من جهة أُخرى، يذكر بورتون أنّ المشروبات الكحولية التي يذكر بيركهارت وجود أمكنة خاصّة لبيعها في مكّة لم يعد لها وجود مطلقاً في أيّامه، وقد أكّد له بعض الضبّاط الأرناؤوط أنّهم وجدوا صعوبة فائقة في تهريب بعض القناني من هذه المشروبات من جدّة إلى مكّة. ثمّ يشرح في الحاشية أنّ زيارة بيركهارت كانت في عهد استيلاء محمد علي باشا عليها، ويعزو السبب

إلى هذا الوضع بطبيعة الحال.

ومن طريف ما يذكره بورتون في هذا الفصل (٣٢ من ج٢) أنّ أحد المطوفين كان يصحبه في ذهابه وإيابه إلى العمرة، فأصرّ عليه أن ينيبه للحجّ بالنيابة عن أبيه وأُمّه، فألقىٰ نفسه مجبراً على الإذعان للطلب، وأخبره أنّ أباه يسمّى يوسف بن أحمد، وأُمّه فاطمة بنت يونس، ففعل المطوّف ذلك وأخذ أُجرته المقنّنة عن عمله هذا [٧١].

وقد زار بورتون مقبرة مكّة المقدّسة كما يسمّيها، التي كان يُطلق عليها «جنّة المعلّىٰ».

وهو يقول: إنّه شاهد فيها المكان الذي علّقت فيه جثّة عبدالله بن الزبير بأمر من الحجّاج بن يوسف الثقفي، وقبر عبد الرحمن بن أبي بكر، يذكر أنّه موضع تقديس السنّة والشيعة معاً، وقبر السيّدة خديجة الكبرى الذي كان مغطّىٰ بقماش أخضر، وقبر آمنة والدة النبيّ ﷺ الذي أُعيد بناؤه بعد أن خرّبه الوهابيّون، وبعد هذا يذكر بورتون قيامه بزيارة الأماكن الأُخرى التي ذكرها بيركهارت من قبل. ويشير في الحاشية إلى أنّ الكتب التي رجع إليها تذكر اثني عشر مكاناً آخر للزيارة في مكّة، لا يعرف عن أكثرها غير اسمها.

وأخيراً؛ يشير بورتون إلى دعوة عشاء دعاه إليها رجل يُقال له علي بن ياسين الزمزمي. وقد أكل فيها أكلات كثيرة.. وقد أكل بعض ذلك بملعقة خشبية، وهو يقول، في هذه الأثناء: إنّ العرب يتجاهلون فنّ الأكل الفرنسي.. ويذكر بالمناسبة أنّ مكّة تتجهّز من الطائف ووادي فاطمة بكمّيات كثيرة من الخضر والفواكه التي يبلغ مقدارها في موسم الحجّ وحده مئة حمل بعير في اليوم على الأقل، وممّا يؤتىٰ به إلى مكّة الرقّي والتمر والليمون والعنب والخيار وما أشبه [٧٢].

وهكذا انتهت حدّة مغامرات بورتون، ولم يبقَ لديه من عمل سوىٰ مغادرة مكّة والرجوع إلى جدّة، حيث سارع إلى إنجاز قضيّتين؛ الأُولى أنّه كشف للمستر كول القنصل البريطاني في جدّة عن هويّته [٧٣]، والثانية هي صرف الحوالة المالية التي كانت الجمعية الجغرافية الملكية قد أرسلتها إليه؛

ليطرد الفقر ويسدّ بعض الديون[٧٤]، دون أن ننسى أنّ هذه الحوالة هي جزء من المبلغ المرصود لبورتون قبال قيامه بمهمّته السريّة تلك.

بعد مغادرته مكّة، سمح بورتون لنفسه بنيل قسط من الراحة، في أعقاب تجربة مثيرة: «وعندما وصلت إلى السهل الفسيح شعرت بهزّة من الفرح تنتابني، ذلك الشعور الذي لا يحسّ به إلّا السجين الذي خرج من غياهب السجن»[٧٥].

ولكن؛ ماذا عن مرافقه محمّد البسيوني؟

لقد كان محمّد البسيوني بصحبة بورتون حتّى نهاية المطاف، حيث رافقه إلى جدّة. ولكنّ ثمّة تغيّراً طرأ على الموقف، لحظه بورتون على مرافقه الشاب، الذي ودّعه ببرود لم يستطع بورتون تفسيره، بيد أنّ البسيوني كان قد أسرّ للشيخ نور (خادم بورتون الهندي) بأنّ هناك شكّاً يخامر عقله حول حقيقة بورتون، وقد قال لخادمه: «إنّني قد فهمت الآن أنّ سيّدك ليس مسلماً.. بل هو بريطاني من الهند، ضحك على ذقوننا»[٧٦].

ولكن هل فهم الآخرون سرّ بورتون كما فهمه محمّد؟ فلقد انتشرت بعض الإشاعات التي تدلّ على أنّ الكثيرين قد فهموه، وأنّ تنكّر بورتون لم يكن ناجحاً تماماً كما يبدو من نظرته.

إذ قيل: إنّه اضطرّ لقتل رجل رآه يتغوّط بغير الشكل المألوف، وقد تحدّىٰ هذا الرجل مصداقيّته نتيجة لذلك، ممّا جعل بورتون يقوم بقتله. ومع ذلك فهاهو بورتون قد أتمّ رحلته ولا يكاد أيّ إنسان أن يصدّق أن يصل بورتون إلى نهاية رحلته سالماً دون أيّ ضرر في تلك الظروف الصعبة، وبين جمهور متديّن متحمِّس مقاتل، وسلطات شديدة المراقبة والحذر.. لو أنّ الشكّ تطرّق إلى البعض..

أمّا بورتون نفسه فقد أنكر أنّ شخصاً ما قد شكّ في أمره، أو فكّر أنّه لم يكن ذلك الشخص الذي يعرفه الجميع أنّه من الحجّاج السائرين في طريق الحجّ[٧٧]، وبهذا يكون بورتون قد أجاد لعب دوره المرسوم بمهارة فائقة، وإنْ كان قد أُكتشف أمره في

اللحظة الأخيرة، وبعد فوات الأوان، من قبل مرافقه البسيوني، خلافاً لبعض أسلافه الرحّالة الغربيّين الذين كانت تحوم حولهم الشبهات منذ الخطوة الأُولى.. اللّهم ما عدا هذه الحادثة العابرة التي تمكّن بورتون أن يتلافاها على وجه السرعة، رغم أنّه حاول إنكارها!

● **مهمّات أُخرىٰ**

عاد بورتون إلى القاهرة، حيث أمضىٰ ما تبقّىٰ من إجازته محافظاً على تنكّره.. خادعاً أصدقاءه البريطانيّين الذين كانوا يمرّون في المدينة[٧٨] بعدها غادر القاهرة إلى انجلترا، ومنها قصد إلى أفريقيا الشرقية والحبشة متنكّراً بزيّ تاجر عربي[٧٩].

وكان أوّل أوروبي يدخل مدينة هرار في أثيوبيا عام ١٨٥٥م، وأُصيب بحربة في فكّه الأسفل، ووضع كتاب «خطوات في أفريقيا الشرقيّة». وأقام سنتين في تركيا. وفي عام ١٨٥٨م أرسلته الحكومة البريطانية في بعثة لكشف منابع النيل، فكتب عن مناطق البحيرات في أفريقيا الاستوائية، واكتشف بحيرة تنجانيقيا[٨٠].

بعد ذلك غيّر بورتون مسار رحلاته، وتوجّه إلى شمال أمريكا لدراسة «المورمون» (طائفة دينية نشأت في القرن التاسع عشر اعتبر مؤسّسها أنّ تعاليمه مكمِّلة للإنجيل) في سولت ليل سيتي (ولاية يوتا). وفي عام ١٨٦١ تزوّج من «ايزابيل اروندیل» التي لعبت دوراً كبيراً في تعيينه في المراكز القنصلية في أفريقيا الغربية والبرازيل ودمشق، ثمّ تريستا في شمال ايطاليا[٨١].

في العام ١٨٦٦م منحته الملكة فيكتوريا رتبة فارس، جرّاء خدماته التي قدّمها إلى بريطانيا العظمىٰ، وفي العام ١٨٦٩م نُقل من البرازيل إلى دمشق التي قصدها مع زوجته بصحبة «ادوارد بالمر» (أحد كبار العملاء السريّين البريطانيين في الشرق)، ومنذ اللحظات الأُولى انخرط بورتون وزوجته في حياة دمشق بكلّ ما أُوتيا من وقت ومن قوّة، وقد كان بورتون المثال الوحيد، كما تقول زوجته، للرجل غير المسلم الذي ما إن أدّى

الحـــجّ، حـــتّىٰ صـار مـثل المسـلمين يعتبرونه واحداً منهم، ويسمّونه الحجّي عبدالله، ويعاملونه كأنّه واحد منهم..

وفيما تـنغمس الزوجـة ايـزابـيل في أعماق المجتمع الدمشقي.. كـان زوجـها يمارس هواية غير مألوفـة في السـلك الدبلوماسي، وهـي العـودة إلى حـياة التقنّع والتخفّي التي طالما أجادها، وكان يجوب أسواق دمشق القديمة متزيّياً كلّ مرّة بشخصية مختلفة من الشـخصيّات المحلّية.. كذلك كانت ايزابـيل بـورتون ترتدي أحياناً الزي العربي (من دون أن تتخفّىٰ) وتنزل إلى دمشق لكي تتذوّق شيئاً من حياة الشرق، حسب زعمها. وحين كانت تسافر في الصـحراء بمـعيّة زوجها كانت تـرتدي ثـياب الرجـال مدّعية أنّها ابنة ريتشارد!

قبل مضيّ وقت غير طويل، بدأت علامات الاستفهام تُثار حول تحرّكات السفير وزوجته التي بدأ مسلمو دمشق يتّهـمونها بالتعصّب للكثلكة والتـبشير بها كلّما سـنحت لهـا الفـرصة، وحـينما بلغت تدخّلات بـورتون في سـياسات دمشق المحلّية ذروتهـا اضـطرّت وزارة الخـــارجـية البريـطانية نـقل قـنصلها بورتون إلى تريستا الايطالية، وذلك في ١٦ آب (اغسطس) ١٨٧١م[٨٢].

وفي إيـطاليا، حـيث كـان الضـجر يطغىٰ على حياته، تـذكّر بـورتون أنّ أحد معارفه في القاهرة كان أخبره بأنّه خلال عودته من الحجّ اكتشف مـغارة مـــليئة بـالذهب في مـقطع تـقع شمال الجزيرة العربية، يـفصلها عـن سـيناء خليج العقبة .. وهكـذا نجـد بـورتون على رأس بعثة ضمّت مهندساً فـرنسيّاً وبعض الجنود المصريّين، بعدما تمّ إقناع الخديوي إسماعيل، وغادرت المجـموعة السـويس في آذار (مـارس) ١٨٧٧م، وأمـــضت ثـــلاثة أسـابيع في المـنطقة وجـــدت خـــلالها النـــقوش القـديمة والحشرات والنباتات الجديدة، إلّا أنّها لم تكتشف أيّ ذهب، ولكن هذا لم يمنع بورتون من إرسال برقية إلى الخديوي مـليئة بـالآمال والاحـتمالات بـوجود الذهب، فوافق إسماعيل عـلى تـوسيع البعثة، فعاد بـورتون مـن جـديد مـع مجموعة مـؤلّفة مـن أربـعة أوروبـيين وستّة ضـبّاط مـصريين و٣٢ جـندياً

و ٣٠ عاملاً في مقالع الأحجار، وطبّاخ يوناني ونجّار.

وعلى امتداد أربعة أشهر، أخفق بورتون في الحصول على مبتغاه، بيد أنّه تمكّن من مسح مساحة ٢٥٠٠ ميلٍ، وعادوا بـ ٢٥ طنّاً من النماذج المختلفة، ودرسوا ١٨ موقعاً قديماً، في مقدّمتها مدينة مدين.. ويعتبر علماء الجغرافيا أنّ مسح بورتون الجيولوجي لهذه المنطقة كان أهمّ إسهام قدّمه لدراسة شبه الجزيرة العربية.

وبعد هذه الرحلة، خفّف بورتون تنقّلاته، وتفرّغ لنشاطات أدبية عدّة، فأكمل عام ١٨٨٦م أكبر مهمّة نذر نفسه لها وهي ترجمته الانكليزية لكتاب «ألف ليلة وليلة» التي وصلت إلى ١٦ مجلّداً، بما فيها الملاحظات والهوامش المطوّلة[٨٣]، وقد صدرت في العام نفسه الذي حصل فيه على لقب سير. كما اهتمّ بنشر كتبه وإعادة طبع بعضها. وإضافة إلى ما تمّت الإشارة إليه في ثنايا البحث من كتبه، هناك عدّة مؤلّفات له كتبها كلّها بالانكليزية ونشرت وهو حيّ؛ وأهمّها: سوريا غير المكتشفة، زنجبار، مناطق البحيرات في أواسط أفريقيا، وكان قد حاول مع غيره ترجمة القرآن بالسجع الشعري[٨٤].

وفي تشرين الأوّل (اكتوبر) ١٨٩٠م، توفي السير ريتشارد بورتون في تريستا، وهو في التاسعة والستّين من عمره، ودفن في لندن، وقد شيّدت له زوجته ضريحاً فريداً اتّخذ شكل خيمة عربية[٨٥]، كما وضعت كتاباً عن حياته.

العدد القادم

الهوامش :

(١) سمير عطا الله؛ «قافلة الحبر: الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج (١٧٦٢ـ ١٩٥٠م)، دار الساقي، لندن، ١٩٩٤م: ٨١، وصحيفة الحياة (ط لندن): الاثنين ٤ أيار (مايو) ١٩٩٢م، مقال مسلسل؛ «أوروبيون في الشرق ـ ٧» لرلىٰ الزين.

(٢) د. حلمي خضر ساري؛ «صورة العرب في الصحافة البريطانية»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٨م: ٤٣.

(٣) قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ٨١.
(٤) ادوارد سعيد؛ «الاستشراق: المعرفة. السلطة. الانشاء»، تعريب كمال أبو ديب، ط ٢، ١٩٨٤م: ٨١.
(٥) المرجع نفسه: ٢٠٦.
(٦) يُراجع مقال «رجال على ظهر الرمال العربيّة» لعبد الرحيم حسن، مجلّة العالم (لندن)، العدد (٢٧٦) ـ ٢٧ آيار (مايو) ١٩٨٩م ـ ٢٢ شوّال ١٤٠٩هـ: ٥١.
(٧) قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ٨٧ ـ ٨٨.
(٨) بيتربرينث؛ «بلاد العرب القاصية: رجلات المستشرقين إلى بلاد العرب»، ترجمة خالد عيسى أسعد وأحمد غسّان سبانو، دار قتيبة، بيروت، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م: ١٤٢.
(٩) قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ٨٨.
(١٠) بلاد العرب القاصية؛ مرجع سابق: ١٤٢ ـ ١٤٣.
(١١) المرجع السابق: ١٤٣، بشيء يسير جدّاً من التصرّف.
(١٢) جعفر الخليلي؛ «موسوعة العتبات المقدّسة ـ ٢، قسم مكّة»، مؤسّسة الأعلمي، ط ٢، بيروت، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م: ٢٩٤.
(١٣) د. محمود السمرة؛ «مراجعات حول العروبة والإسلام وأوروبا»، كتاب العربي الرابع، الكويت ١٩٨٤م: ١٢٣. ومن المثير للاستغراب انّ الباحثة الفرنسية جاكلين بيرين قد أهملت الإشارة إلى بورتون في كتابها «اكتشاف جزيرة العرب». كما فعل ذلك عبد الرحمن بدوي في «موسوعة المستشرقين!!».
(١٤) خير الدين الزركلي؛ «الأعلام»، دار العلم للملايين، ط ٧، بيروت، ١٩٨٦م، المجلّد الثالث، ص: ٣٨، وكذلك نجيب العقيقي؛ «المستشرقون»، دار المعارف، ط ٤، القاهرة (د. ت)، الجزء الثاني: ٥٩.
(١٥) قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ٨١.
(١٦) بلاد العرب القاصية؛ مرجع سابق: ١٤٤.
(١٧) قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ٨٢.
(١٨) المرجع نفسه: ٨٢.
(١٩) بلاد العرب القاصية؛ مرجع سابق: ١٤٥.
(٢٠) قافلة الحبر؛ مرجع سابق:
(٢١) سورة العرب في الصحافة البريطانية؛ مرجع سابق: ٤٣.
(٢٢) المستشرقون؛ مرجع سابق ٢: ٥٩.
(٢٣) صحيفة الحياة؛ مرجع سابق.
(٢٤) بلاد العرب القاصية؛ مرجع سابق: ١٤٥.
(٢٥) المرجع نفسه: ١٤٦.
(٢٦) قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ٨٢.

(٢٧) يُراجع: بلاد العرب القاصية: ١٤٦ ـ ١٤٧، وصحيفة الحياة، وقافلة الحبر: ٨٢ (مراجع مذكورة).

(٢٨) موسوعة العتبات المقدّسة؛ مرجع سابق ٢: ٢٩٥.

(٢٩) صحيفة الحياة؛ مرجع سابق.

(٣٠) بلاد العرب القاصية؛ مرجع سابق: ١٤٧.

(٣١) صحيفة الحياة؛ مرجع سابق.

(٣٢) قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ٨٣.

(٣٣) صحيفة الحياة؛ مرجع سابق، وقافلة الحبر؛ مرجع سابق: ٨٣.

(٣٤) قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ٨٤.

(٣٥) المرجع نفسه: ٨٤.

(٣٦) بلاد العرب القاصية؛ مرجع سابق؛ ١٤٨.

(٣٧) قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ٨٤.

(٣٨) بلاد العرب القاصية: ١٥٠.

(٣٩) قافلة الحبر: ٨٤.

(٤٠) بلاد العرب القاصية: ١٥١.

(٤١) قافلة الحبر: ٨٤.

(٤٢) بلاد العرب القاصية: ١٥١.

(٤٣) المرجع نفسه: ١٥٣.

(٤٤) صحيفة الحياه؛ م. س.

(٤٥) موسوعة العتبات المقدّسة ٣: ٢٦١ (قسم المدينة المنورة).

(٤٦) المرجع نفسه ٣: ٢٦٢.

(٤٧) بلاد العرب القاصية: ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٤٨) موسوعة العتبات المقدّسة ٣: ٢٦٠. يصف نجيب العقيقي كتاب «الحج إلى مكّة والمدينة» بأنّه من أوثق المراجع عند الغربيّين (المرجع المذكور ٢: ٦٠)، أمّا خير الدين الزركلي فيقول عن الكتاب بأنّه يعدّ من أعظم المراجع عند الغربيّين في موضعه (الاعلام ٣: ٣٨).

(٤٩) يُراجع:

Burtin, Richardf - Personal Narrative of A Pilgrimage to AL - Madinah & Meccah. Edited By his Wife isabel burton (London 1863). Memorial Edition.

(٥٠) موسوعة العتبات المقدّسة ٢: ٢٦٥.

(٥١) المرجع نفسه ٢: ٢٦٦.

(٥٢) المرجع نفسه ٢: ٢٦٧ ـ ٢٦٩.

(٥٣) لمزيد من الاطّلاع يراجع المرجع السابق ٢: ٢٦٩.

(٥٤) يقول بورتون في حاشية له (ص: ٣٧ من الجزء الثاني من كتابه: إنّ الإمام الشافعي يسمح لأتباعه بسبّ يزيد ابن معاوية الذي جعلته قساوته مع آل البيت، وجرائمه وموبقاته، يهودا الأسخربوطي المسلم، وقد سمع بورتون مسلمين أحنافاً يسبّون يزيداً كذلك (موسوعة العتبات المقدّسة ٣: ٢٨٢).

(٥٥) موسوعة العتبات المقدّسة ٣: ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٥٦) للمزيد يراجع المرجع السابق ٣: ٢٨٥ ـ ٢٨٩.

(٥٧) بلاد العرب القاصية: ١٥٤.

(٥٨) موسوعة العتبات المقدّسة ٣: ٢٩٦. ولابدّ من الإشارة هنا إلى اضطراب رواية «بيتر برينث» حول موعد انطلاقة بورتون التي حدّدها بتاريخ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٨٥٣، ليعود إلى تحديد وصوله إلى مكّة بتاريخ ١١ أيلول من العام نفسه.. ولعلّ الاشتباه كان في الترجمة!

(٥٩) قافلة الحبر: ٨٥، وكذلك صحيفة الحياة: ٤ / ٥ / ١٩٩٢.

(٦٠) موسوعة العتبات المقدّسة ٢: ٢٩٦.

(٦١) صحيفة الحياة: ٤ / ٥ / ١٩٩٢.

(٦٢) نقلاً عن موسوعة العتبات المقدّسة ٢: ٢٩٦.

(٦٣) المرجع نفسه.

(٦٤) بلاد العرب القاصية: ١٦١.

(٦٥) موسوعة العتبات المقدّسة ٢: ٢٩٦.

(٦٦) للمزيد يراجع المرجع السابق ٢: ٢٩٨ ـ ٣٠١.

(٦٧) المرجع نفسه ٢: ٣٠١.

(٦٨) بلاد العرب القاصية: ١٦١.

(٦٩) المرجع نفسه: ١٦١ ـ ١٦٢.

(٧٠) موسوعة العتبات المقدّسة ٢: ٣٠٢.

(٧١) المرجع نفسه ٢: ٣٠٢.

(٧٢) المرجع نفسه ٢: ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٧٣) المرجع نفسه ٢: ٣٠٣.

(٧٤) بلاد العرب القاصية: ١٦٢.

(٧٥) المرجع نفسه: ١٦٢.

(٧٦) المرجع السابق: ١٦٢، وكذلك صحيفة الحياة: ٤ / ٥ / ١٩٩٢.

(٧٧) بلاد العرب القاصية: ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٧٨) صحيفة الحياة: ٤ / ٥ / ١٩٩٢.

(٧٩) المستشرقون للعقيقي؛ مرجع سابق ٢: ٥٩.

(٨٠) الاعلام للزركلي؛ مرجع سابق ٣: ٣٨، والمستشرقون ٢: ٥٩، وصحيفة الحياة.

(٨١) صحيفة الحياة: ٤ / ٥ / ١٩٩٢.

(٨٢) للمزيد يراجع؛ قافلة الحبر: ٩٠ ـ ٩٢.

(٨٣) صحيفة الحياة: ٤ / ٥ / ١٩٩٢، وللمزيد حول ترجمة كتاب ألف ليلة وليلة تُراجع «دائرة المعارف الإسلامية» بقلم نخبة من المستشرقين، ترجمة أحمد الشنتناوي وآخرين، دار المعرفة، بيروت (د.ت)، المجلّد الثاني، ص: ٥٣٤، حيث يذهب كاتب المادّة مكدونالد إلى أنّ بورتون اعتمد كثيراً على ترجمة «پاين» بل نقل منها نقلاً حرفيّاً في كثير من الأحيان.

(٨٤) يراجع الاعلام للزركلي ٣: ٣٨، والمستشرقون للعقيقي ٢: ٦٠.

(٨٥) صحيفة الحياة؛ مرجع سابق، وقد وقع د. حلمي خضر ساري في اشتباه، حين ذكر وفاته في القاهرة. رغم اعتماده منهجاً علمياً صارماً. وجلّ مَنْ لا يُخطئ!